

في الأدب العالمي

الأدب العالمي في الأدبين العربي والانجليزي للأستاذ نغرى أبو السعود

فريق من الأمة دون فريق؛ وساعد على ظهور الأدب العالمي اختلاط العرب بالأمم وفساد لغة الكلام . وصار للانجليز كذلك أدبان منذ تحضروا وتقفوا وامتزجت اللغة الانجليزية بسكونية اللاتينية ، واستخدمت في العلوم والآداب ، وتوطدت قواعدها واتسعت جوانبها وأصبحت لغة مجتمع راق . فانفصال الأدبين الخاص والعالمي أحدهما عن الآخر جاء مختلف الكيفية في الأمتين : ظهر الأدب العالمي في العربية بفساد اللغة الفصحى ومحطاطها ، وظهر الأدب الفصيح في الانجليزية بارتقاء اللغة العامية وارتفاعها

تختلف الأمتان في هذا ، وتختلفان أيضاً في علاقة الأدبين الفصيح والعالمي في الأزمنة التالية لانفصالهما : ففي العربية كانت الهوة بينهما سحيقة والاتصال يكاد يكون معدوماً ، لشدة ترفع الأدب الفصيح عن صاحبه ، بل تجاهله لوجوده ؛ أما في الانجليزية فكانت المسافة بينهما أقرب ، والاتصال أوثق ؛ وظل للأدب العالمي دائماً للثقفين اعتبار ، ورحب به الأدب الفصيح سراً وخلطه بنفسه ، واقتبس أساليبه وصوره ، واصطنع مواضعه ونهائه ، فأفاد بذلك فائدة كبرى

فالأدبان الفصيح والعالمي وإن اختلفا تهذب لغة واستقامة تفكير وعمق نظرة وتنوع أشكال ، يستقيان من معين واحد ، هو النفس الانسانية ، بميولها وأحلامها وآمالها . وإذا امتاز أولهما بصفات هي وليدة الحضارة العالية والمجتمع الراق والعلم والنظم ، فإن الثاني يمتاز بصفات الصدق والبساطة والقرب من الطبيعة التي هي مرجع كل فن ؛ والأدب الفصيح عرضة من آن الى آن لغلبة اللفظ فيه على المعنى ورجاحة الزخرف على الجوهر ، وظهور التأنق والتحنق على الشمور الصحيح والطبع المرسل ، فهو بحاجة دائماً الى العودة الى الطبيعة ، وخير سبيل له اليها الأدب العالمي ، إذا تقاه من أوشابه واستخلص أجود عناصره ظل للأدب العالمي في انجلترا دائماً اعتبار ، وظل كبار الأدباء بما سمحت ثقافتهم وانسجت نظرتهم الى الحياة على علم به : فشكسبير وسبنسر وملتون طالما استقوا من معينه قصصاً سائناً ضمنوه آثارهم ، والنقطة من كنوزه ألفاظاً معبرة أحقوها باللغة الشعرية الراقية فصارت من بنيتها ؛ وأتيح للأغني الشعبية من حين إلى حين أفراد من خاصة المثقفين عنواناً يجمع ما وصل إلى عهدهم منها ، فكانت تلك المجموعات نصب أعين الشعراء ،

بداوة الأمة هي عهد طفولتها : فيها يكون أدبها ساذجاً على صدق عاطفته ، ضئيل الحظ من الفكر المستقيم على قوة شعوره ؛ ويشبه دخول الأمة طور الحضارة والثقافة بلوغ الناشء الحلم : إذ تنضج أفكارها وينتبه وعيها بما يحيط بها من مظاهر الكون ويزداد تأملها فيها واتصالها بها ؛ ومن ثم يزداد أثر الفكر السليم والنظر الثاقب في آدابها بجانب الشمور الحار والمطرفة المتدفقة ؛ على أنه لما كانت العاطفة عادة تقتصر على فريق من أبناء الأمة دون فريق ، فإنه يصير للأمة المتحضرة أدبان : أدب راق للخاصة وأدب عامي للدهماء ؛ ولاريب أنه كلما ازداد انتشار التعليم في الأمة كان ذلك كسباً للأدب الراق ؛ ولم توجد بعد الأمة التي يتوحد فيها الأدبان

وتزداد الهوة بين الأدبين تدريجياً بارتفاع الحضارة وازدهار الثقافة وترقى المجتمع : فتدخل الأدب الراق النزعة العلمية ، وترقى لغته وتتسع جوانبها ، وتهذب لهجته وترق حاشيته ، ويزداد ترانه من جيل الى جيل لاستماتته بالكتابة ؛ أما الأدب العالمي فيتداول بالرواية ، ولذا يظل في تجدد وتحول وزيادة ونقص ؛ تلونه المجتمعات المتعاقبة بألوانها ، وتترك فيه المصورات الوالية مياهما ، ويظل ساذجاً كأدب البداوة الأولى : يهتف بالقرائن والمواطن البسيطة ، ويتحدث بأحلام النفس الانسانية في السعادة المطلقة وميلها الدائب الى الجمال والقوة والحن والفضيلة ، ويظل على ما يشوبه من خرافة وغرارة هو الثقافة الوحيدة التي تتمتع بها الطبقة العاملة

وقد كان للعرب على عهد حضارتهم أدبان كذلك : ساعد على قيام الأدب الراق اعتداد أشرف العرب بأدبهم القديم ، وتمسكهم بلغتهم ، وانتشار الثقافة والعلوم التي وردت مناهلها

كولردج ، وصدراً بمقدمة شرحها المذهب الجديد للستمة
روحه من روح الأغاني والأناصيص العامية
ووجد الأدب العاصي لنفسه مسلكاً جديداً إلى الأدب
الفصيح ، حين تقدمت القصة وتناولت الحياة الاجتماعية بالوصف
الدقيق ، وأولت بتصوير شتى الشخصيات من الطبقات الفقيرة
والأوساط الريفية ، وتناولت معاملات تلك الطبقات والأوساط
ومحاوراتها وعقليتها بالمرض والتحليل ، وتوخت الأمانة للواقع
بنقل ألفاظ القوم ومحاكاة أساليبهم في الخطاب ؛ وفي روايات
هاردي تصوير لكل ذلك دقيق لا يبارى دقة ونفاذ بصيرة :
وهكذا كسب الأدب الفصيح كسباً جديداً من الأدب العاصي
أما في العربية فكان نصيب الأدب العاصي دائماً الزرابة
والتجاهل ؛ وكان أول ما يأخذ به التأدب نفسه التخلص من
شوائب العامية لفظاً ومعنى وأسلوباً ، وشر ما يوصم به لفظ
أنه عاصي ، أو معنى أنه سوقي ؛ وأبعد ما يفكر فيه الأديب أن
يخالط العامة أو الزراع ليأخذ عنهم ما يتحدثون فيه وما يتأدبون
به ، من قصص ممزوج بالخرافة ، وغناء متمم بالسداجة ،
أو يطوف في الأرض طاباً لذلك كاطاف سكوت وأمثاله في
شباب اسكتلندا ؛ وإنما كان أدباء العربية يشدون الرحال إلى البادية
طلباً للفصيح من الكلام والأسيل من الأساليب ، والمأثور من
أقوال العرب يُستخذ حجة في المناظرة ، وأنموذجاً في الانشاء ،
وقد عيب على بشار قوله في جارية :

ربابة ربة البيت تصب الخل في الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

لأنه تناول موضوعاً بسيطاً عامياً وتحدث في سداجة لا تليق
بالشعر الفصيح . وإنما كان الأدب العربي فيما ارتضى له أمجابه ،
واستن له نقاده ، أدب بلاط يحفل بذكر الملوك لا السوقة ،
ونديم أرسطقراط بشارك في حياة العلية ويشمخ عنم دونهم ،
ولا يرى في حياة الدهماء وحيا لقول ، ولا موضوعاً لتفكير ، فلم
يكن من شعراء العربية من يحتفي بوصف أشخاص قريته كما فعل
جولد سميث في « القرية المهجورة » وصفا كله حب وحرارة ،
ولا من يرى أبناء القرية في مراقبهم الأخيرة ، وهم الذين أفنوا
العمر كدأ دون أن تسمع الدنيا بأسمائهم أو يصمدوا إلى المجد على
أكتاف غيرهم أو دماهم ، كما فعل جرائ في مرثيته

يتخذون منها مواضيع لأشعارهم أربحاً كونها في الأسلوب والنظم
وكان لتلك الأغاني فضل عظيم في بث النهضة الرومانسية
في أوائل القرن التاسع عشر ؛ بعد أن اختنق الشعر في جو
المدينة وأنتقته قيود الألفاظ والتقاليد ؛ فقد انصرف جمهور
التأديين عن ذلك الضرب المتكلف من النظم إلى مجموعات الأشعار
الشعبية التي توفر على جمعها ونشرها إذ ذلك نفر من الأدباء ،
وضمنوها ما وصل اليهم من مقطوعات منذ عهد القرون الوسطى
فتأزلاً ، بعضها يدور حول السحر والطلاسم ، وبعضها من نسج
الخرافة ، وبعضها مزيج من الخرافة والتاريخ ، وكلها مملوءة بحب
الطبيعة ووصف مناظرها ؛ وكان لاسكتلندا وأدبائها فضل كبير
في تلك الحركة ؛ فقد أخذ الكثير من الأغاني من أدبها العاصي ، وقام
أدباؤها بالجانب الأكبر من ذلك الجمع والنشر ، وقاموا بالرحلات
بين أريافها وحزونها ينقلون عن الزراع والرعاة أغانيهم وأشعارهم
ومن الاسكتلنديين أيضاً كان الرعيل الأول من الشعراء
الذين نظموا أشعارهم في التنفي بالطبيعة وحياة البسطاء من
الفلاحين والرعاة وحياة الفروسية الغارة ؛ ومن أولئك ألان
رمزي وروبرت برنز والترسكوت . وقد كان ثاني هؤلاء فلاحاً
فحماً ، فعبّر في شعره عن حياة فلاحى اسكتلندا وتقاليدهم
وأفراحهم وأتراحهم ؛ أما الثالث فقد كان على نقيض ذلك
أرستقراطياً سليل أسرة تمت إلى فرسان المصور الوسطى ،
فاحتفى بشديد الاحتفاء بالأغاني الراجمة إلى تلك المصور ، وازداد
شفقاً بالأغاني الشعبية حين اطلع على ما ترجم منها عن الألمانية ،
فطاف في اسكتلندا طلباً للاستزادة ، وجعل محصوله من كل ذلك
مادة لأشعاره وقصصه التي رفعت في زمنه وبمده إلى مصاف كبار
الأدباء ، وأكسبته شهرة عظيمة في القارة الأوروبية

وفي هذا الجو المملوء بحب الطبيعة والبساطة والشعور
الصادق ، نشأ وردزورث وكولردج ثم شلي وكيتس ، وهذه
الروح الخافقة المأخوذة عن الأغاني الشعبية هي التي أوحت اليهم
أشعارهم البديعة وجمالهم ينجون بالشعر نهجهم الطريف .
وكان وردزورث أحرص الجميع على اختيار المواضيع البسيطة
لقصيده ، واختيار أشخاصه من بين الريفين والدهماء ، واستعمال
ألفاظهم بذاتها في شعره ؛ وقد جمع باكورة ما نظمته على ذلك النمط
في كتابه « الأغاني الشعرية » الذي أخرجه بالاشتراك مع

وهو ما يعوز الأدب العربي الفصيح منتوره ومنظومه ؛ فالقصة الاجتماعية ضرب من الأدب لم يأنفه أدباء العربية ، والخيال الذي أولع به الشعراء واشتهر به البحترى خيال كاذب ، إنا هو وهم ومعالطات صيانية : من توهم أطيان أحبة لا وجود لهم ، واختراع مواقف للوداع لا طائل تحتها ؛ ولو فطن الأدباء لأخذوا بيد القصة فرفعوها من عاميتها إلى لغة الفكر المثقف والوضع المذهب ، فأضافوا بذلك إلى الأدب فناً يجد فيه متحولاً عن فنونه المتبقية

والأدب العامي حافل بضروب الأوزان والقوافي الشعرية المتداخلة ، وهي الأشكال التي رفضها الأدب الفصيح وظل متمسكاً دونها بالقصيدة الموحدة القافية ، وأبغدها عن حظيرته فاجأت إلى حظيرة الأدب العامي ؛ على أن تلك الموشحات التي راجت في الزجل دون الشعر أدل على الرقي الأدبي وأقدر على التعبير عن شتى المقاصد من القافية الموحدة ، فذلك فائدة أخرى ما كان أحرى الأدب الفصيح أن يستفيد منها من الأدب العامي ؛ ولكن الأرجح أن ذبوع تلك التوشحات في أدب العامة زاد الأدباء صدوداً عنها فيما يحتفون به من أغراض القول

وأسباب هذا الحفاء الذي استحك بين الأدبين الفصيح والعامي في العربية هي : روح المحافظة التي سادت الأدب الفصيح ، والتبجيل العظيم لآثار الأقدمين ، والاعتداد الشديد بلغة المضاد التي هي لغة الكتاب الغزل والدولة ؛ وهي عوامل نغماها وقواها اعتراز العرب في صدر الإسلام بقوميتهم وتماليمهم عن عداهم من الشعوب ، وحرص أبناء تلك الشعوب على التشبه بهم بحذق لفهم وتقليد أساليبهم ؛ كل ذلك جعل للفظ عند الأدباء التقديم على المعنى ، فكل قول عدم اللفظ الفصيح هو عامي سوق حقيق لا قيمة له ، وجمل لأساليب العرب الأقدمين مكانة رفيعة ، فكل قول شذ عنها ناب مستهجن ، وكل احتذاء لها مهما أرفقه التكلف وخرج به التقليد عن طور العقول والمحسوس ، فهو مقبول معدود في الأدب ؛ هذا إلى ما تقدمت الإشارة إليه من تعلق الأدباء بأهداب الملكية والمالية ابتغاء النوال ، مما نأى بجانبهم عن جانب العامة

فالأدب الفصيح استحال في حيز تلك التقاليد والمراسيم إلى

وقد أتر عن بعض شعراء العربية كأبي نواس وأبي تمام ، أنهم كانوا يتلقفون أحياناً أقوال العامة فيصوغونها شعراً ، كالذي رواه ابن الأثير من أن أبا تمام وصل من بعض قصيده إلى قوله : « وأحسن من تور يفشقه الصبأ » وأرتج عليه ، حتى صر بالباب سائل يقول : « من يباض عطاياكم في سواد مطالبنا » ، فأكل أبو تمام البيت : « يباض العطايا في سواد المطالب » ، على أن ذلك كان نادراً ضئيل الأثر . أما الاحتفال للأدب العامي ، ومحاولة الانتفاع به ، والرغبة في جمه ، والميل على تلقيح الأدب الفصيح بمناصر الحياة فيه ، فذلك كان بعيداً جداً عن أذهان أدباء العربية

لم يستفد الأدب العربي الفصيح من شقيقه العامي شيئاً ، مع أنه كان أحوج كثيراً من الأدب الإنجليزي إلى تلك الاستفادة ، بل لتل رفضه الاستفادة من أدب العامة كان من أسباب اضمحلاله وسقوطه ؛ فقد أبق الأدب العربي إلا اعترال أدب العامة بنفس الاصرار والشموخ اللذين اعترل بهما آداب الأمم الأخرى ، وتمال عليه تماليه عليها ؛ ورأى المسمودي وابن التديم نسيخاً من قصص ألف ليلة وليلة ، التي بدأت تتجمع حولها آداب العامة فاستخفا بها وحقرها ، ولم يخطر لها أن بها مادة لمبقرية الأدب أو لقاحاً للأدب ، سخرا من الأفايص الشعبية في القرن الرابع التي كانت الصنعة اللفظية فيه قد ركبت الأدب ، والتقاليد قد كملت المنظوم والمنتور ، ولو التفت الأدباء إلى ذلك الأدب الشعبي الناشئ واستوحوه جديداً من القول ، لربما شهد الأدب العربي نهضة جديدة وإحياء كالذي شهدته الأدب الإنجليزي في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن الذي يليه

والحق أن الأدب العربي العامي قد احتوى من المواضيع الأدبية والأشكال الفنية ما أعوز الأدب الفصيح ، بل إنه احتوى من ذلك على ما هو أشبه بالأدب وأنهض بوظيفته وأقرب إلى التعبير عن الشعور . والحق أن الأدب الفصيح ليس بالترجمان الصادق المحتقل للجمع العربي ، ولا هو بالسجل الكامل لنتاج الذهن العربي وخلاصة النفس العربية في تعاقب العصور ، والأدب العامي أصدق وأوفى منه في كل ذلك

فالأدب العامي حافل بآثار الخيال ؛ مملوء برائع القصص ،

قوالب متحجرة ، وأوضاع متصلبة ، غير حر الحركة ولا سهل التجديد ولا قابل لتأثير من الخارج ، لا يتأثر إلا بماضييه ، بتراث العرب الأفواج الذين قصدوا الفصائد ونسبوا ونحروا وهجوا وأرتجولوا الخطب ؛ وتلك حال إذا صار إليها الفن جمد وبعد عن الأمانة للحياة والتصوير لحقائقها . وشبهه بذلك ما صار إليه فن النحت وفن التصوير عند قدماء المصريين من جمود وزبغ عن الحقيقة ، حين كتبها الأوضاع والرموز الدينية

وقد أصبح لزاما على الأدب الفصيح وقد كتبه التقاليد بالقيود ، وأحاطته الصنعة بالسدود ، أن يترك التعبير الصحيح عن شعور المجتمع للأدب العامي ، وذلك هو الذي تم دون أن يشمر رجاله ، ودون أن يقلعوا عن كبريائهم وترفعهم عن الشعب . فظلوا في تقاليدهم الجامدة وبراعاتهم اللفظية سادرين ، وقد نما الأدب الشعبي واتسع ، وحوى من صادق الشاعر والمواطف ، وجميل المحاورات والناظر ، ما أعوز الأدب الفصيح ، وما قرب به إلى نفوس الشعب وإلى نفوس الأمم الأخرى معا :

فقد فطن الأوروبيون من عهد الحروب الصليبية إلى ما في الأدب العربي من جمال وعمق وامتعة ، فتداولوا أفاضلهم وأغانيه وحاكوها في آدابهم الشعبية وخالطوها بها ، وترجموا مجموعات منها إلى لغاتهم في شتى الأزمنة ، ولم يألوا حفاوة واستداحا ، وعرفوا فضلها في إدخال العنصر الرومانسي في آدابهم

العالية ، وهي نفس الوظيفة التي أداها أدبهم الشعبي ؛ أما موقفهم من الأدب العربي الفصيح فكان خلاف ذلك : فأنهم كلما حاولوا دراسته والانتفاع به في آدابهم صدم عنه ما فيه من غرابة معان متكيفة لا تمت إلى الحياة الصحيحة ، ومن زخارف ألفاظ يحتق بها أدباء العربية كأنها حقائق مجسمة ، فإذا ترجمت لم تعد شيئا مذكورا ، فرجموا خائنين وعزوا تلك الغرابة إلى اختلاف عقليتي الشرق والغرب ، وما هو كذلك وإنما مرجعها ما خالط الأدب الفصيح من تقاليد جامدة شبيهة بالرموز الدينية ، بعدت به عن التعبير عن شعور النفس الانسانية ، شرقية كانت أو غربية فالأدب العربي العامي قد احتوى من عناصر الصدق في الشعور ، وتصوير المجتمع ، ووثبات الخيال ما أعوز الأدب الفصيح كثيرا ، وهو مع ذلك قد اتقى الإهمال والأزدراء من المثقفين وخسر الأدب الفصيح معونته في المصور الماضية ، وهو إن لم يكن أحرى من الأدب الفصيح بالدرس ، وأكثر منه فائدة لمؤرخ الأدب والمجتمع ، فليس دونه في تلك الوجوه ، وهو خلاق أن يدرس معه جنبا إلى جنب ، وتجمع آثاره المتخلفة من شتى المصور ، ففيها هي ذاتها متعة جلييلة ، وفيها بجانب ذلك للشاعر والقاصي ما يبعث الإلهام ، ويبسط منادح التفكير والقول ، ويدنى من الطبيعة والصدق

فخرى أبو السعود

هيلوينز الجديدة

قصة رائعة في شكل رسائل تأليف

جانه مالك برسر

ونقلها إلى العربية الأستاذ

أحمد محمد الزيات

ونشر نابا في مجلة

الرواية

ابتداء من عددها الأول الذي يصدر في ١٥ يناير سنة ١٩٣٧

ابن خلدون

بقلم الأستاذ محمد عبد الله عنان

فيه عرض نقدي مستفيض لحياة المؤرخ الفيلسوف وتراثه الفكري والاجتماعي ووصف ضاف لآثاره ومنهجه وأساليبه ، ومقارنات نقدية بين نظرياته ونظريات علماء الاجتماع في الغرب . يقع في مائتي صفحة طبع دار الكتب ومجلد تجليداً حسناً

ثمنه ٨ قروش . ولشتركي الرسالة مدة يناير تخفيض ٢٥٪

عدا البريد وهو قرشان للداخل وخسة للخارج . ويطلب من مجلة الرسالة ولجنة التأليف والترجمة وجميع المكاتب المنتهية